القسم الأول

الدّراسَة

الفصل الأول: ترجمة المؤلف ابن فرحون

الفصل الثّاني: دراسة كتاب «إرشاد السَّالك»

الفصل الأول

ترجمة المؤلّف ابن فرحون

حياة ابن فرحون وأثره في الحركة العلمية (*)

* **وردت ترجمته في:**

- الأعلام، للزركلي: ١/١٣٣.
- ألف سنة من الوفيات: ١٣٣.
- إنباء الغمر بأنباء العمر، لابن حجر: ١/٥٣١.
- إيضاح المكنون، للبغدادي: ١/١٨٩ - ٢/٣٦٨.
- برنامج المكتبة الصادقية: ٤/٢٨٠ و ٣٦١.
- برهان الدين إبراهيم بن فرحون، لمحمد أبو الأجفان - منشورات الفا مالطا.
- تاريخ الأدب، لبروكلمان (بالألمانية): ٢/١٧٥، ملحق: ٢/٢٢٦.
- تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش: ٣/٦٢٣، ط. دمشق.
- التحفة اللطيفة، للسخاوي: ١/١١٦-١١٧.
- تعريف الخلف برجال السلف، للحفناوي: ١/٢٠٠-٢٠١.
- توشيح الديباج، للبدر القرافي: ٤٥-٤٦ رقم ١.
- دائرة المعارف الإسلامية: ٣/٧٨٦، هوبكنز (بالفرنسية).
- درة الحجال، لابن القاضي: ١/١٨٢-١٨٣ رقم ٢٤٠.
- الدرر الكامنة، لابن حجر: ١/٤٩ رقم ١٢٤.
- شجرة النور، لمخلوف: ٢٢٢ رقم ٧٨٩.
- شذرات الذهب، لابن العماد: ٦/٣٥٧.
- طبقات المالكية، لمجهول: ٣٤٠ رقم ٦٣٦.
- الفتح المبين: ٢/٢١١.

. . . . . .

- القاضي برهان الدين بن فرحون وجهوده في الفقه المالكي. (رسالة جامعية في كلية الآداب جامعة محمد الخامس في الرباط) للطالبة نجيبة أغرابي.
- كشف الظنون، لحاجي خليفة: ١/٣٣٩، ٧٦٢- ٢/١١٠٦.
- كفاية المحتاج، للتمبكتي: ١٩أ.
- معجم المؤلفين، لكحالة: ١/٦٨.
- معجم المطبوعات، لسركيس: ٢٠٢.
- معلمة الفقه المالكي، لعبد العزيز بن عبدالله: ٣٢.
- مقدمة تحقيق درة الغواص في محاضرة الخواص: ١٣-٢٩.
- مقدمة تحقيق الديباج: ١/ل .م.ن.س.
- الموسوعة المغربية، لعبدالعزيز بن عبدالله: ١/١٥-٢/٨١.
- نيل الابتهاج: ٣٠-٣٢.

نسبه وأصله:

إن لآل ابن فرحون المستوطنين بالمدينة المنورة نسباً عربياً يرجع إلى بطن من كِنَانة يُعرف بيَعمَر، ينسبون إليه فيقال: اليَعمَري[١] (بفتح أوله والميم وسكون المهملة، آخره راء).

كتب مترجمُنَا نسبَهُ بخطه، فجاء كما يلي:

إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون اليعمري المدني المالكي[٢].

وأضاف في ترجمة أبيه[٣] وعمه[٤] عبارة التونسي الأصل[٥] المدني المولد والمنشأ.

ولخص أحمد بابا التمبكتي ترجمته مما كتبه جده الفقيه أحمد بن عمر، فجاء فيها[٦]:

---

(١) اللباب، لابن الأثير: ٣/٤١٤ – لب اللباب، للسيوطي: ٢٨٤.

(٢) التحفة اللطيفة: ١/١١٦ رقم ٩١.

(٣) الديباج: ٢/١٢٤.

(٤) م. ن: ١/٤٥٤.

(٥) يبدو أن انتساب ابن فرحون إلى الأصل التونسي كان معروفاً شائعاً في أوائل القرن الثامن، حيث قال ابنُ بطوطة: (أصلُهم من مدينة تونس ولهم بها حسب وأصالة)، (الرحلة: ١٢١).

(٦) نيل الابتهاج: ٣٠.

اليعمري[١] الأُيَّاني[٢] ثم الجياني[٣] الأصل[٤].

ويمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه الأسرة عاشت في الأندلس ثم بتونس. قبل أن تستوطن المدينة المنورة التي ولد فيها أعلام من آل ابن فرحون، نبغوا في فنون علمية وتولوا القضاء خلال القرون السابع والثامن والتاسع، فبنوا مجد هذه الأسرة مما جعل السخاوي يصفها بقوله: (بيت رئاسة وقضاء وعلم)[٥] وتابعه في ذلك التمبكتي فقال: (أهل بيت علم)[٦].

---

(١) نقل التمبكتي من خط جده أيضاً أن هذه النسبة ليعمَر بن مالك بن يهثم من ذرية ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. (م. ن: ٣٢).

(٢) الأياني (بضم الهمزة وشد التحتية بعدها ألف ونون) (م.ن: ٣٢).

(٣) نسبة إلى مدينة أندلسية تسمى جيَّان، كانت كثيرة الخصب حولها كثير من القرى، يُربى فيها دودُ الحرير، وهي في سفح جبل عال، ولها قصبة حصينةوعيون جارية. وتسمى اليوم: JAEN. (صفة جزيرة الأندلس من الروض المعطار للحميري: ٧٠-٧٢).

(٤) أشار إلى هذا الأصل الأندلسي بعض المترجمين مثل: بروكلمان في (الملحق: ٢/٢٢٦) وهوبكينز في (دائرة المعارف الإسلامية: ٣/٧٨٦)

(٥) الضوء اللامع: ٩/١٢٧.

(٦) النيل: ٣٠.

ولادته ونشأته:

لئن اتفق المترجمون لبرهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن فرحون على أنه توفي سنة ٧٩٩هـ، فإنهم لم يتفقوا على سنة ولادته. ومنهم من أشار إليها بصفة تقريبية بذكر عمره عند وفاته، وبعضهم عيَّنَها. ومنهم من أغفلها.

فابن حجر ذكر في «الدرر الكامنة»(١) أنه توفي عن نحو من السبعين(٢)، فتكون ولادته حوالي سنة ٧٢٩هـ، وذكر في «إنباء الغمر»(٣) أنه جاوز السبعين، فتكون ولادته قبل هذه السنة.

ومال السخاوي(٤) إلى أنها كانت بعد(٥) ٧٣٠هـ فيكون عمره أقل من السبعين.

---

(١) ١/٤٩ رقم ١٢٤.

(٢) تابعه في ذلك البدر القرافي، في (التوشيح: ٤٥) والزركلي في (الأعلام: ١/٤٧)، وسركيس في (معجم المطبوعات: ٢٠٢).

(٣) ١/٥٣١.

(٤) التحفة اللطيفة: ١/١١٦.

(٥) تابعه في ذلك من المعاصرين محمد الأحمدي أبو النور فقال: ولد بعد السبعمائة بيسير (مقدمة تحقيق الديباج: ١/ل).
وكذلك أصحاب برنامج المكتبة الصادقية في أحد الموضعين اللذين وردت فيهما ترجمة ابن فرحون، فقالوا: ولد بعيد سنة ٧٣٠هـ. (البرنامج: ٤/٣٦١).

أما ابن العماد[1] فقد ذكر أنه جاوز التسعين عند موته، وهذا بعيد، وانفرد به.

وأبعد منه قول (هوبكينز): إنَّه ولد حوالي سنة ٧٦٠هـ[2] لأن هناك ما يدلنا على أنه عاش قبل هذا التاريخ، ومن ذلك أنه أخذ عن شيوخ ماتوا قبله كما سنرى.

وعين تاريخ الولادة أصحاب برنامج المكتبة الصادقية، فقالوا: (ولد في ذي القعدة سنة ٧٣٢هـ)[3] دون ذكر مصدرهم المعتمد في ذلك.

وعيَّن السنة كحالة، فذكر أنها ٧١٩هـ[4].

وممن أغفل التعرض لسنة ولادته أحمد بابا التمبكتي.

وعندي أنه لا يستبعد أن يكون مترجمنا ولد قبل سنة ٧٢٩هـ وعاش أكثر من سبعين سنة، وذلك لأن شيخه الأقشهري المختلف في سنة وفاته وعلى أبعد الاحتمالات توفي[5] سنة ٧٣٩هـ، المتوقع أن يكون ابن فرحون

---

(١) شذرات الذهب: ٦/٣٥٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ٣/٧٨٦.

(٣) البرنامج: ٤/٢٨٠.

(٤) المعجم: ١/٦٨.

(٥) الدرر الكامنة: ٣/٣٩٨، معجم كحالة: ٨/٢٣٥.

أخذ عنه متجاوزاً العاشرة من عمره، وكذلك شيخه الجمال المطري الذي احتك به كثيراً ولازمه وانتفع به، وهو متوفى[1] سنة ٧٤١هـ.

وكانت ولادة إبراهيم بن فرحون في المدينة المنورة[2]، موطن أسلافه.

وبها نشأ وترعرع في ظل أسرته العلمية المعتزة بشريف المحتد وكريم النسب، وفي كنف شيوخه الأبرار.

وكان ينعم بعناية والده العالم المحدث الفقيه المتبحر في علوم العربية، ويحظى بتربيته الإسلامية وتوجيهه في درْب الاستقامة والصلاح.

ولئن استأثرت رحمة الله بالوالد أبي الحسن علي[3] قبل أن يتخطى الابن العقد الثاني من عمره، فإن أحضان العم أبي محمد البدر عبدالله تلقت مترجمنا، فواصل العناية به والإشراف على دراسته.

ونستشف من ترجمة إبراهيم لعمه[4] أنه كان يكنُّ الإعجابَ بشخصيته، ويقدِّر جِدَّه في العبادة وسعيَه لنفع الناس وحرصَه على طلب العلم.

---

(١) الأعلام: ٦/٢٢٢، لحظ الألحاظ: ١١٥.

(٢) التحفة اللطيفة: ١/١١٦، معجم المطبوعات لسركيس: ٢٠٣.

(٣) كانت وفاته سنة ٧٤٦هـ.

(٤) الديباج: ١/٤٥٤-٤٥٩.

وكان ذلك بادرة تأثر به[1] واقتداء بسلوكه وأخلاقه.

شيوخه بالمدينة:

كانت المدينة المنورة في القرن الثامن تزخر بأعلام العلماء من أهلها ومن الوافدين عليها في المواسم وغيرها.

وقد كانت لإبراهيم بن فرحون صلةٌ بعلماء أهل السنة من هؤلاء، أخذ العلم وسمع الحديث عنهم، وحاورهم وشاورهم في بعض المسائل الفقهية.

والمعروفون من شيوخه – زيادة على والده وعمه – هم:

١– جمال الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خالد بن عيسى الأنصاري السعدي المديني المعروف بالمطري. كان مؤرخاً مشاركاً في علوم. ت ٧٤١هـ[2].

سمع ابنُ فرحون عنه الموطأ والصحيحين وسنن أبي داود وابن ماجه، وغيرها[3].

---

(١) يقول التمبكتي: (تدرب بعمه أبي محمد بن فرحون)، (النيل: ٣٠).

(٢) الأعلام: ٦/٢٢٢، كحالة ٨/٣٥٧، لحظ الألحاظ: ١١٥، هدية العارفين: ٢/٩٥.

(٣) النيل: ٣١.

(وتفرد عنه بسماعه منه تاريخ المدينة)[1].

٢- عفيف الدين عبدالله المطري ابن الجمال المذكور، وهو إمام علامة ت ٧٦٥هـ[2].

٣- محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري، ولد في أقشهر بقونية اختلف في سنة وفاته بين ٧٣١هـ و ٧٣٧هـ و ٧٣٩هـ[3].

٤- الزبير بن علي بن سيد الكل بن أبي صفرة الشرف الأسواني الأزدي المهلبي المصري، نزيل المدينة المنورة. ت ٧٤٨هـ[4].

٥- محمد بن جابر بن محمد الوادي آشي الأصل التونسي الاستيطان المعروف بابن جابر. كان محدثاً مقرئاً عارفاً بالنحو واللغة وكانت له رحلات وله أسانيدُ كتبِ المالكيةِ يرويها إلى مؤلفيها، وله تآليف حديثية[5].

ولد سنة ٦٧٣هـ، ت ٧٤٩هـ.

---

(١) إنباء الغمر: ١/ ٥٣١، الدرر الكامنة: ١/ ٤٩.

(٢) الأعلام: ٤/ ٢٧١، لحظ الألحاظ: ١٤٣، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٩٠-٢٩١ رقم ٢٢٠١.

(٣) الدرر الكامنة: ٣/ ٣٩٨ رقم ٣٣٥٠، كحالة: ٨/ ٢٣٥.

(٤) التحفة اللطيفة: ٢/ ٨٩-٩١ رقم ١٣١١، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٠٥-٢٠٦ رقم ١٧٣٣.

(٥) ترجمته في: التعريف بابن خلدون: ١٨، الديباج: ٢/ ٢٩٩-٣٠١، الدرر الكامنة: ٤/ ٣٣ رقم ٣٦١٨، نفح الطيب: ٥/ ٢٠٠-٢٠٢، الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٨٣.

قال عنه ابن فرحون: (سمعت عليه موطأ مالك بن أنس رواية يحيى ابن يحيى في الحرم النبوي في سنة ست وأربعين وسبعمائة، لقي أيمة من العلماء والمحدثين أصبح بهم نسيج وحده انفساح رواية وعلو إسناد... إنه أحد شيوخنا وشيخ كثير من أهل زماننا)[1].

٦- محمد بن عرفة[2] (والد الشيخ أبي عبدالله محمد بن عرفة الورغمي التونسي الإمام، كان خيراً صالحاً متعبداً، جاور بالمدينة ولازمها حتى توفى، وكان صاحبَ جد)[3].

قال عنه ابن فرحون: أقام بالمدينة على منهاج الصالحين والسلف الماضين[4].

٧- أبو عبدالله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي الهواري المالكي. كان نحويًّا ناظماً، قرأ القرآنَ والنحوَ والفقهَ على شيوخ الأندلس ثم رحل إلى الشرق وهو أعمى[5]، صحبةَ أحمد بن يوسف الرعيني ت ٧٧٩هـ. توفي ابن جابر[6] سنة ٧٨٠هـ.

---

(١) الديباج: ٢/٢٩٩-٣٠١.

(٢) النيل: ٣١. (٣) م.ن: ٢٢٤.

(٤) الديباج: ٢/٣٣٢.

(٥) ترجم له السخاوي وقال: كان ديناً متخلقاً متواضعاً آخذا في العربية حسن المعاملة. (التحفة اللطيفة: ١/٢٥٩ رقم ٣٤٢)، وترجم له ابن الخطيب في (الإحاطة: ٢/٣٣٠) وابن حجر في (الإنباء: ١/١٥٩، الدرر: ١/٣٦١ رقم ٨٤٨) والسيوطي في (بغية الوعاة: ١/٣٥).

(٦) بغية الوعاة: ١/٣٤-٣٥ رقم ٥٥.

هذا ويذكر الشيخ محمد مخلوف[1] أن مترجمنا أخذ عن أبي الحسن علي بن الجياب الأندلسي ت ٧٤٩هـ.

وعندي أن ذلك غير صحيح، لأن ابن فرحون ترجم له[2] ولم يشر إلى ذلك. فلو أخذ عنه لذكر ذلك في ترجمته، كما فعل عندما ترجم لابن جابر الوادي آشي.

وجدير بالملاحظة أن ابن فرحون كان حريصاً على ربط وثيق الصلة بأقرانه من الأعلام الواردين إلى المدينة المنورة وعلى مباحثتهم ومشاورتهم في بعض المسائل العلمية، ومن ذلك أنه استضاف الإمامَ محمد بن عرفة التونسي – ابن شيخه سالف الذكر – فأكرمه وأنزله في بيته، وذلك عندما قدمَ المدينةَ في رحلة حجه[3].

ومن المسائل الفقهية التي باحثه فيها وشاوره في حكمها مسألة صلاة المسافرين في السفينة تحت سقفها غير المرتفع، مع انحناء رؤوسهم[4].

---

(١) الشجرة: ٢١٤ رقم ٧٥٢.

(٢) الديباج: ٢/١١١.

(٣) م. ن: ٢/٣٣٣.

(٤) المعيار المعرب: ١/١٧٦.

وقد أجاز ابن عرفة جميع مسموعاته ومروياته وتصانيفه لابن فرحون[1].

رحلاته:

لإبراهيم بن فرحون رحلات إلى مصر والقدس ودمشق، لم يهتم مترجموه بإفاضة الكلام عنها ولم يسلطوا عليها ساطع الأضواء، وإنما اقتصر بعضهم[2] على تعيين تاريخ رحلته إلى القدس ودمشق، وهو سنة ٧٩٢هـ.

وبتتبع تراجم تلاميذ ابن فرحون وتراجم العلماء الذين أرخ لهم في «الديباج» تَمَكَّنا من التقاط بعض الإفادات عن تاريخ زيارته لبعضِ البلدان.

استفدنا أنه كان سنة ٧٧٥هـ بحمص يدرس صحيح البخاري[3] وأنه كان في القاهرة سنة ٧٧٦هـ أو قبلها، وذلك لقوله في ترجمة خليل بن إسحاق الجندي المالكي: (اجتمعت به في القاهرة)[4]، ولقوله في ترجمة محمد بن عبدالرحمن بن عسكر البغدادي: (اجتمعت به بمصر

---

(١) النيل: ٣١.

(٢) الأعلام: ١/٤٧، تعريف الخلف: ١/٢٠٠، النيل: ٣٠.

(٣) معجم ابن فهد: ٢٦٦.

(٤) الديباج: ١/٣٥٨.

بمنزله بالقاهرة شيخاً فاضلاً حسن السَّمت والوقار كثير المذاكرة... لزم بيته للإسماع والإفادة)[1].

والرجلان من الذين توفاهم الله سنة ٧٧٦[2].

واستفدنا أنه كان سنة ٧٩٢هـ بدمشق، يصحبه ابنه محمد أبواليمن، فقد قال في ترجمة أحمد بن عمر بن علي بن هلال الربعي[3] ت ٧٩٥هـ

---

(١) م.ن: ٢/٣٢٧.

(٢) أما ابن عسكر فلم أر خلافاً في وفاته في هذه السنة.
وممن ترجم له ابن فرحون في (الديباج: ٢/٣٢٧ رقم ١٤٥) وابن القاضي في (درة الحجال: ٢/١٧٠) ومخلوف في (الشجرة: ٢٢٢) وكحالة في (معجمه: ١٠/١٥٣). وأما خليل بن إسحاق فذكر ابن حجر أنه توفي سنة ٧٦٧هـ (الدرر الكامنة: ٥/١٧٥ رقم ١٦٥٣) وتابعه السيوطي في (حسن المحاضرة: ١/٤٦٠ رقم ٨٣) وصوبه محمد الحطاب. والذي اعتبره التمبكتي هو الأشبه ما نقله ابن مرزوق وابن غازي عن بعض تلاميذ خليل وهو ما يفيد أن وفاته كانت سنة ٧٧٦هـ، وهذا التلميذهو القاضي الناصر الإسحاقي وهو أعلم بذلك من غيره لكونه مصاحباً له.
وهناك مرجحات أخرى لهذا التاريخ، ساقها التمبكتي في (النيل: ١١٤-١١٥).
ولهذا اقتصرت على ذكر هذا التاريخ أعلاه.
وما جاء في (الديباج: ١/٣٥٧) من أن وفاته سنة ٧٤٩هـ، خطأ محض قد يكون من عدم تثبت النساخ، إذ لا يمكن أن يصدر عن ابن فرحون الذي زار خليلاً بالقاهرة بعد هذا التاريخ.

(٣) ترجمته في (شجرة النور: ٢٢٣ رقم ٧٩٧، شذرات الذهب: ٦/٢٣٨، الدرر الكامنة: ١/٢٤٦ رقم ٥٨٩، الديباج: ١/٢٥٧-٢٥٨).

(لقيته بدمشق في سنة اثنتين وتسعين وأخذ عنه ابني محمد أبو اليمن وكان مع مجموع فضائله خامل الذكر كثير العزلة عن أهل المناصب، بل عن الناس ما عدا خواص طلبته)[١].

وهذه الرحلة إلى القدس ودمشق كانت آخر أسفاره[٢].

ويستنتج من هذا أن ابن فرحون كان في رحلاته يفيد ويستفيد، يسمع الحديث ويدرس العلم ويلاقي الشيوخ ويحضر مجالسهم العلمية، ولقد كانت الرحلة في عصره – لطلب العلوم ولقاء المشيخة – مزيد كمال في التعلم، وبها تحصل الملكات وترسخ، وتكتسب الفوائد الجمة[٣].

توليه القضاء:

كان ابن فرحون يعارض المؤلفين الذين يرهبون في تآليفهم من تولي القضاء، ويرى أن هذا المنصب شريف يؤدي صاحبُه أجلَّ الخدمات لمجتمعه الإسلامي[٤].

---

(١) الديباج: ١/٢٥٨.

(٢) طبقات المالكية: ٤٣٠.

(٣) المقدمة، لابن خلدون: ٤٠٦-٤٠٧.

(٤) انظر تبصرة الحكام: ١/١٣، المعيار المعرب: ١٠/٨١-٨٢.

وقد تولى مترجمنا خطة القضاء في ربيع الآخر من سنة ٧٩٣هـ واستمر في مباشرتها إلى وفاته[١].

وقد كان مؤهلاً لهذه الخطة علميّاً، فهو واسع المعرفة بإجراءات التداعي وأحكام القضاء، يبرهن على ذلك ما أودعه كتابَه «تبصرة الحكام» الذي سيأتي ضمن مؤلفاته.

وكان في قضائه مثال العدل والنزاهة وإقرار الحق والانتصاف من الظالمين. قال أحمد بابا التمبكتي: (سار فيها (خطة القضاء) سيرة حسنة ولم تأخذه في الله لومة لائم... فهابته الرعية، وانتصف من الظالم)[٢].

ومع استمراره في منصب القضاء طيلة السبع سنوات الأخيرة من عمره، فقد قضى هذه السنوات في فقر، يستدين ليأكل وينفق على عياله الذين أرهقت كثرتهم كاهله ويكتري المسكن دون أن يملكه وعندما توفي كانت الديون تثقل ذمته[٣].

---

(١) التحفة اللطيفة: ١/١١٧، النيل: ٣٠-٣١.

(٢) النيل: ٣١.

(٣) طبقات المالكية: ٤٣١.

صفاته الخلقية والخُلقية ومستواه العلمي:

كان جميل الهيئة أبيض اللون حلو المنظر معتدل القامة لا يلبس الثياب المصقولة، ويلازم الطيلسان على العمامة(١).

أما صفاته الخُلقية والعلمية فقد نوه بها مترجموه الذين أبرزوا بذلك جوانب النبوغ في شخصيته.

فابن قاضي شهبة يصفه بـ(القاضي العالم الأصيل)(٢).

والتمبكتي يذكر أنه كان (جامعاً للفضائل فريد وقته... عالماً بالفقه والنحو والأصول والفرائض والوثائق وعلم القضاء، عالماً بالرجال وطبقاتهم مشاركاً في الأسانيد، واسع العلم فصيح القلم، ذا بيان كريم الأخلاق، بعيداً عن التصنع والرياء، من أرق أهل زمانه طبعاً وألطفهم عبارة)(٣).

والشيخ مخلوف يحليه بـ(الإمام العمدة الهمام أحد شيوخ الإسلام وقدوة العلماء الأعلام، وخاتمة الفضلاء الكرام)(٤).

ويحليه الزركلي بـ(العالم البحاث)(٥).

---

(١) توشيح الديباج: ٤٥.

(٢) تاريخ ابن قاضي شهبة: ٣/٦٢٣.

(٣) النيل: ٣٠.

(٤) الشجرة: ٢٢٢، الأعلام: ١/٤٧.

(٥) الأعلام: ١/٤٧.

ويدلنا على روح التقوى التي يتمتع بها كثرة أوراده وذكره وتلاوته وإحياؤه الليل بالصلاة والعبادة[١] تقرباً لله سبحانه.

وفاته:

ابتلى الله سبحانه وتعالى برهان الدين بن فرحون آخر عمره بداء الفالج الذي أصاب شقَّه الأيسر وأبطل حركته[٢].

وفي العاشر من ذي الحجة يوم عيد الأضحى سنة ٧٩٩هـ (٤ سبتمبر ١٣٩٧م) فاضت روحه الطاهرة بالمدينة المنورة راجعة إلى ربّها.

وأجمع مترجموه على تاريخ وفاته، ولم يشذ عنهم إلا ابن القاضي فحشره ضمن المتوفين في سنة ٧٩٠ في «لقط الفرائد»[٣] وكذلك فعل في «درة الحجال» موردا التاريخ الصحيح بصيغة التضعيف[٤]: (وقيل: توفي سنة ٧٩٩هـ).

وما ذهب إليه ابن القاضي لا يصح، لأنه يخالف ما درج عليه مترجموه[٥]، وفيهم الأقرب زمناً إلى ابن فرحون، الأعرف به منه، ولأنه

---

(١) النيل: ٣٠، طبقات المالكية: ٤٣١.

(٢) ألف سنة من الوفيات: ٢٢٥.

(٣) ألف سنة من الوفيات: ٢٢٥.

(٤) الدرة: ١/١٨٢-١٨٣.

(٥) منهم ابن حجر في (الإنباء: ١/٥٣١) وفي (الدرر: ١/٤٩)، والسخاوي في=

تأكد أن ابن فرحون كان له نشاط معروف بعد سنة ٧٩٠هـ، فقد رحل إلى الشام سنة ٧٩٢هـ، واتصل في السنة نفسها بابن عرفة وابن هلال الربعي، كما رأينا، ثم باشر القضاء سنة ٧٩٣هـ كما سبق.

وقد دفن البرهان بن فرحون بالبقيع[١] وهي المقبرة التي تضم رفات سائر من مات بالمدينة من أفراد أسرته[٢].

أثر ابن فرحون في التيار الثقافي والحركة العلمية:

إن من المعايير التي تُعرف بها قيمة الأعلام، وتدرك بها مكانتهم، معيار التأثير في حياة مجتمعهم وواقع بيئتهم، ومعيار الإثراء للرصيد الفكري، ونشر المعرفة الدينية والعقيدة الصحيحة بين الناس.

ومحاولات الإصلاح التي تصدر عن الأعلام تعارضها نزعات الفساد والباطل والضلال، فيكون الصراع بين الحق والباطل، ويقوى تأثير الإصلاح تارة ويضعف تارة أخرى.

= (التحفة: ١/١١٧)، وابن العماد في (الشذرات: ٦/٣٥٧)، والتمبكتي في (النيل: ٣٢)، والقرافي في (التوشيح: ٤٥)، ومخلوف في (الشجرة: ٢٢٢)، وكحالة في (المعجم: ١/٦٨)، وبروكلمان في (تاريخه: ٢/١٧٥).

(١) شذرات الذهب: ٦/٣٥٧.

(٢) أشار السخاوي إلى مقبرة آل ابن فرحون في ترجمة عبدالله بن محمد ابن فرحون (الضوء: ٥/٥٥).

وهذا ما رأيناه ببيئة المدينة في عصر ابن فرحون، حيث كانت للعلماء جهود في مقاومة ضلال فئة الشيعة ومحاولة استئصال شأفة المنكرات.

وكان ابن فرحون ينبهُ إلى خطر بدعةِ الشيعة وما تجره من عظيم الفساد وبالغ الضرر، ويحمّل الحكام تبعة التصدي إلى هذه البدعة لحسمها بسلطانهم ودرء مفاسدها الجسيمة.

وفي تقديري أن إشارة التمبكتي إلى إظهار ابن فرحون لمذهب مالك ومناصرته بعد خموله بالمدينة عندما ولي منصب القضاء[1] لا تعني طغيان التعصب المذهبي عليه، لعلاقته الوطيدة بعلماء من المذاهب الفقهية المختلفة إذ أخذ عن فقهاء من غير المالكية، وسمع عنه وأخذ عنه طلبة من غير المالكية بالمدينة وبحمص.

وإنما تعني تلك الإشارة سعيه لخدمة مذهبه المالكي، تدريساً وتأليفاً وتطبيقاً في مجال القضاء، وإفتاءً بأحكامه، كما تعني مناصرة الاتجاه السني الذي تمثل المالكية رافداً من روافده.

وكل انحراف جره سلطان أمراء الشيعة بالمدينة يتصدى له ابن فرحون بالمعارضة، ويكشف للناس خطره، ويدلهم على فساده، مبرهناً

---

(١) النيل: ٣١.

وفي ترجمته ببرنامج المكتبة الصادقية: ٤ / ٢٨٠ هذا المعنى.

على صحة رأيه وسلامة العقيدة التي يعلنها أهل السنة، مستدلاً بنصوص من أقوال الأيمة السنيين من مختلف المذاهب التشريعية.

من ذلك قبول شهادة أهل بدعة التشيع، وبناء الأحكام في القضاء عليها. فقد عارض ابن فرحون ذلك بشدة، قائلاً: (لاخلاف في المذهب أن شهادة أهل البدع غير جائزة، ولا يعتبر منهم الأمثل فالأمثل، ولا تجوز شهادتهم لأهل السنة ولا عليهم، ولا تجوز شهادتهم لبعضهم على بعض، لانتفاء العدالة التي هي شرط في قبول الشهادة...)[1].

وكان ابن فرحون يؤكد على وجوب تعيين عدول من أهل السنة لخطة الشهادة، لينحسم بذلك خطر شهود أهل البدعة الذين ينبغي أن لا تقبل شهادتهم إلا فيما يقع بينهم مما لا يحضره أهل السنة، وبذلك يخفّ الأمر وتكون شهادتهم مقصورة على محل الضرورة[2].

وهكذا يحاول ابن فرحون أن يحقق إصلاحاً في الواقع الذي حوله، ويسير في ذلك على ضوء هدي الشريعة الإسلامية.

أما أثره في الحركة العلمية فهو يتجلى خاصة في مجالات التدريس والتأليف والإفتاء. وسنتعرض لجهوده في هذه المجالات.

---

(١) المعيار المعرب: ٢/٤٥١-٤٥٢.

(٢) م. ن: ٢/٤٤٨-٤٤٩.

ففي مجال التدريس وتبليغ العلم لمع نجم ابن فرحون حتى عُدّ من (صدور المدرسين ومن أهل التحقيق)[1].

وقد تخرجت على يديه ثلة من الأعلام، منهم:

١- ابنه أبو اليمن محمد[2] ت حوالي ٨١٤هـ.

٢- حفيد عمه: أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله بن محمد ابن أبي القاسم فرحون اليعمري[3] ت ٨٢٢هـ.

٣- شرف الدين محمد بن أبي بكر بن الحسين القرشي العثماني[4] المراغي المصري المدني نزيل مكة الشافعي، أبو الفتح. ت ٨٥٩هـ.

٤- تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي أبو الطيب المالكي[5] ت ٨٣٢هـ.

٥- محمد بن خالد بن موسى الحمصي الحنبلي ابن زَهرة (بفتح الزاي) ت ٨٣٠هـ قاضي القضاة، شمس الدين.

---

(١) كفاية المحتاج: ١٩ أ، النيل: ٣٠.

(٢) الشجرة: ٢٣٩ رقم ٨٥٨، النيل: ٣١٠.

(٣) التحفة اللطيفة: ٣/٢٦، رقم ٢٢٠٢، الضوء اللامع: ٥/٥٥.

(٤) ترجمته في: الأعلام: ٦/٢٨٣، البدر الطالع: ٢/١٤٦، رحلة القلصادي: ١٣٥ رقم ٢٤، الضوء اللامع: ٧/١٦٢، معجم ابن فهد: ٢٢٠-٢٢١.

(٥) النيل: ٣٠٤، الضوء اللامع: ٧/١٨.

حضر سنة ٧٧٥هـ بحمص على إبراهيم بن فرحون قطعة من آخر صحيح البخاري وحدث بها(١).

٦- عبدالرحمن بن زهرة أخو محمد المذكور ت ٨٦٤هـ.

ولد بحمص سنة ٧٧٧هـ ونشأ بها وحفظ القرآن وغالب المنهاج وألفية النحو(٢).

سمع من ابن فرحون قطعة من صحيح البخاري، وهي باب قول الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾.(٣) وحدث بها(٤).

٧- محمد بن محمد بن محمد الحمصي الصوفي القادري الشافعي سمع من ابن فرحون صحيح البخاري(٥).

٨- عبدالله بن أبي بكر بن خالد بن موسى الحمصي الحنبلي جمال الدين ابن زهرة ت ٨٦٨هـ(٦).

---

(١) معجم ابن فهد: ٢٦٦ وهو فيه: محمد بن محمد، والصواب ما أثبتناه لما جاء في (شذرات الذهب: ٧/١٩٥) ولأن ابن العماد يذكر أن عبدالله بن أبي بكر بن خالد الذي سيأتي ذكره هو ابن خي محمد هذا، في (الشذرات: ٧/٣٠٧).

(٢) الضوء اللامع: ٤/١٢٩.

(٣) الصافات: ٩٦.

(٤) معجم ابن فهد: ١٣٠.

(٥) م. ن: ٣٩٣.

(٦) شذرات الذهب: ٧/٣٠٧.

٩- محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد بن خلف الأنصاري الخزرجي المطري الأصل المدني الشافعي[١] ت ٨٥٦هـ.

وممن أجازهم ابن فرحون.

١٠- حسين بن علي بن يوسف بن سالم بن عطية المكي، الشهير بابن أبي الأصيبع، البدر. ت ٨٤٩هـ بمكة[٢].

١١- عبداللطيف بن محمد بن أحمد بن أبي بكر الغنُّومي المكي ت ٨٥٩هـ بمكة[٣].

١٢- عبدالرحيم بن إبراهيم بن محمد بن عبدالرحمن بن إبراهيم اللخمي الأميوطي المكي الشافعي، زين الدين ت ٨٦٧هـ بمكة[٤].

١٣- عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد الحسيني الإيجي صفي الدين، ت ٨٦٤هـ. كان إماماً عالماً صالحاً زاهداً ورعاً[٥].

أما في مجال التأليف فكان لابن فرحون جهدٌ مبذول، قال ابن حجر:

---

(١) التبر المسبوك: ٤١٦، الضوء اللامع: ٩/ ١٠١، معجم ابن فهد: ٢٦٧.

(٢) معجم ابن فهد: ١٠٩، وله ترجمة في (التبر المسبوك: ١٢٨، الضوء: ٣/ ١٥٣).

(٣) معجم ابن فهد: ١٤٤. وله ترجمة في (الضوء اللامع: ٤/ ٣٣٢).

(٤) معجم ابن فهد: ١٣٧. وله ترجمة في (الضوء اللامع: ٤/ ١٦٦).

(٥) معجم ابن فهد: ١٣١-١٣٢. وله ترجمة في (الضوء اللامع: ٤/ ١٣٥).

(تفقه وبرع، وصنف وجمع)[1] ووصف أحمد بابا تآليفه بأنها (في غاية الإفادة لاتساع علمه)[2]، وقال عنه مترجم آخر: (فريد وقته ونسيج وحده، ذو التصانيف المفيدة)[3].

ولم يطبع من كتبه ويشتهر إلا أربعة ويتلوها هذا الكتاب «إرشاد السالك إلى أفعال المناسك» فيكون خامس كتاب منشور.

وأملنا أن ينفض الغبار عن كتبه الأخرى وتظهر للناس فينتفعوا بها.

---

(١) الدرر الكامنة: ١/ ٤٩.

(٢) النيل: ٣٢.

(٣) طبقات المالكية: ٤٣٠.

وهذا جدول للتعريف بمؤلفاته

في الفقه	ملاحظات
١- تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام.	موضوعه: فقه القضاء طبع عدة مرات
٢- درة الغواص في محاضرة الخواص.	موضوعه: ألغاز فقهية وقع تحقيقه وصدر في طبعتين.
٣- إرشاد السالك في أفعال المناسك.	موضوع هذا التقديم والتحقيق.
٤- تسهيل المهمات في شرح جامع الأمهات.	في معلمة الفقه المالكي لعبد العزيز ابن عبدالله أن منه نسخة بالمتحف البريطاني في لندن برقم ٨٧٢، وقد شددت الرحلة إليها للاطلاع عليها، فإذا بها نسخة من كتابه (كشف النقاب الحاجب)، المطبوع.
٥- بروق الأنوار في سماع الدعوى.	لم يكمل - ولا تعرف نسخه
٦- كتاب في الحسبة.	لم يكمل - ولا تعرف نسخه
٧- كشف النقاب الحاجب عن مختصر ابن الحاجب.	موضوعه: بيان مصطلحات مختصر ابن الحاجب الفرعي. منه نسخة بدار الكتب الوطنية بتونس: ١٥٤٢٩. حققة الصديقان: الأستاذان عبدالسلام الشريف وحمزة أبو فارس من ليبيا، ونشرته دار الغرب الإسلامي بيروت.

في التراجم	
١- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب.	طبع أكثر من مرة وهو متداول ولا غنى عنه في تراجم علماء المذهب المالكي
٢- طبقات علماء المغرب	انفرد بذكره الزركلي ولعل نسبته إلى ابن فرحون غير صحيحة.
في أصول الفقه	
١- إقليد الأصول	اختصار لتنقيح القرافي لم يكمل تأليفه
في الطب	
١- المنتخب في مفردات ابن البيطار	موضوعه في الطب لا تعرف نسخه

وأما في مجال الفتوى فقد ضرب ابن فرحون بسهم، بعد أن بلغ مستوى سامياً في الفقه، شهد ببلوغه بعض مترجميه، كما رأينا، وشهدت به مؤلفاته التي تحدثنا عنها. وقد جرت العادة أن يقصد الناس بأسئلتهم الفقهية أهل الذكر من العلماء وخاصة منهم الذين يذيع صيتهم وتنتشر شهرتهم. وكان ابن فرحون من الذين يفتون ويرشدون إلى طريق الله المستقيم.

ولئن لم يشر مترجموه إلى فتاويه، ولم يعرف له كتاب جامع لها، فإن الفقيه أبا العباس أحمد الونشريسي ت ٩١٤هـ أتحفنا ببعض فتاويه في «المعيار المعرب» مثل الفتوى المتعلقة بوصية رجل أن تُدفع غلةُ حانوته بعد موته إلى ابنته البكر إلى أن يدخل بها زوجُها، مع وصيته بثلث ماله للمساكين؟ فقد أفتى ابن فرحون بـ (أنها تحاصص الموصَى لهم بقدر ما ينوبها إلى أن يُدخلَ بها، كما ذكر الموصي، إلا أن تمتنع، ويعلم أن امتناعها لأجل الوصية فيسقط حقها من وقت امتناعها)[1].

(١) المعيار المعرب: ٩/ ٣٦٤.